مدرسة شبه القارة الهندية العربية والأدبية

ميزاتها ومنتجاتها(١)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

حضرات الأساتذة الكبار، وعلماء اللغة العربية والآداب، والمشتغلين بالتربية والتعليم، والتأليف والبحث والتحقيق في مختلف أرجاء العالمين الإسلامي والعربي..

أحييكم بتحية الإسلام، وبتحية القرآن، الذي جمعنا على صعيد حُبّ اللغة العربية ودراستها، ووصل النهار بالليل، والشباب بالشيب في خدمتها، والغيرة عليها، وإيثارها على لغات الأمهات والآباء، والبلاد والأوطان، فلولا القرآن الذي نزل بهذه اللغة، ولولا الرسول الذي نطق بها، ولولا المكتبة الإسلامية العربية التي هي من أغنى مكتبات العالم، والتي أسهم في تكوينها وتوسيعها وتجميلها علماء

---

(١) كلمة تحية وترحيب ألقيت في الندوة العالمية للأدب الإسلامي، المنعقدة في ندوة العلماء بلكهنؤ الهند في ١٢-١٤ من جمادى الآخرة ١٤٠١هـ (١٧-١٩/ من أبريل ١٩٨١م).

العرب والعجم، لما تسنَّى لبلد عجمي يعاني مشكلة اللغات، ويخوض معركة صراع الثقافات والحضارات، ولا يرتبط باللغة العربية ارتباطاً عنصرياً ولا مناخياً، ولا تاريخياً، ولا اقتصادياً وسياسياً، أن يعقد ندوة عالمية في الأدب الإسلامي، ويدعو إليها صفوة الأدباء والباحثين في العالم العربي، ولا يشعر في ذلك بمعنى من معاني «التطفل» وحُبّ الفضول، ولا بشيء من الاقتحام والمغامرة، وتخطي الحدود والآداب، فيلجأ إلى اعتذار وتعليل وتبرير.

إن هذه الندوة العالمية للأدب الإسلامي تعقد في بلاد لم تكن اللغة العربية فيها في فترة من فترات التاريخ لغة النطق والتفاهم، ولغة الديوان والحكومات، ولغة الرسائل والمكاتبات، وإن كان ذلك محسوباً على هؤلاء المسلمين الذين كانوا ولا يزالون يقرأون القرآن باللغة العربية، وهي لغة صلواتهم وعباداتهم. لكن سادتنا العرب -وأرجو عدم المؤاخذة- لا يُخلوِن عن التبعة، فلو وصل المدُّ اللغوي والثقافي والحضاري الذي احتضن مصر والشام والعراق، إلى أسوار هذه القارة الهندية وتوغل فيها، كما توغل في ربوع الشرق العربي، وربطها الخيط النوراني الذي انبثق من الجزيرة العربية في فجر الفتح الإسلامي،

لكان لهذه البلاد شأن غير هذا الشأن، ولما احتجتم إلى وسيط وترجمان.

ولكن بالرغم من أن اللغة العربية لم تكن في يوم من الأيام لغة النطق والتفاهم على مستوى الشعب والجمهور، فإن صلة هذه القارة باللغة العربية وحركة التأليف والتدوين عميقة وقديمة، وقد قدر الله أن تظل هذه البلاد متمسكة عبر القرون والأجيال بعلوم الكتاب والسنة مسايرة لركب التأليف، والإنتاج العلمي السيار، حين ساق إليها في طليعة الدعاة والغزاة، وفي مقدمة الكتيبة المؤمنة المغامرة في أوائل القرن الثاني الهجري، المحدث الكبير الربيع بن صبيح السعدي الذي يقول عنه الجلبي في «كشف الظنون»: هو أول من صنف في الإسلام، أو كان يلي أول المصنفين في الإسلام كما قال بعضهم، وكان قد خرج مع عبد الملك بن شهاب المسمعي من مطوعة أهل البصرة، فمات بأرض الهند في سنة ستين ومائة وكانت في موته شهيداً خارجاً في سبيل الله، حياةٌ للعلم، وبعث للهمم، وحفز للعزائم، وتأمين لمستقبل هذه البلاد العلمي والتأليفي.

ولم تكن عناية هذه البلاد وأبنائها مقتصرة على علوم الكتاب والسنة التي توافرت لها الدواعي القوية، من إيمان

وعقيدة، وحب وعاطفة، وحاجة وضرورة، بل تخطت ذلك إلى اللغة العربية وآدابها، وتاريخ هذه البلاد في خدمة اللغة العربية والعناية بها، والاتصال بأئمة اللغة وأقطابها، واحتضانهم وإيوائهم، قديم. فقد كان الإمام الكبير رضي الدين أبو الفضائل الشيخ حسن بن محمد الصغاني (م٦٥٠هـ) - من رواد وضع المعاجم الكبيرة، ودواوين اللغة - من مواليد هذه البلاد فقد ترعرع وبلغ أشده واستكمل دراسته بمدينة لاهور، وكان دائم التردد إلى مسقط رأسه، وبلاد نيطت بها تمائمه، وقد سارت بتصانيفه الركبان، وخضع لعلمه علماء الزمان، قال السيوطي: (إنه كان حامل لواء اللغة)،وقال الذهبي: (إن إليه المنتهى في اللغة)، وقال الدمياطي: (إنه كان إماماً في اللغة والفقه والحديث)، ومن مصنفاته «العباب الزاخر» في اللغة في عشرين مجلداً، و«مجمع البحرين» في اللغة، و «النوادر في اللغة والتراكيب» وكتب أخرى في أسماء الحيوانات، عدا مؤلفاته في النحو.

وقد ظلت عناية علماء الهند باللغة العربية وآدابها مستمرة على مر العصور والأجيال، ولم تكن هذه العناية تقليدية -سائرة على خط واحد من وضع المعاجم الكبيرة، وتلخيصها- بل كانت لهم فتوح وابتكارات، وزيادات تكاد

تكون فريدة في المكتبة العربية العالمية الواسعة، فقد عُنِيَ العلامة محمد طاهر الفتني (م٩٨٦هـ) بشرح غريب الحديث، فألف كتابه العظيم «مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار» في خمس مجلدات كبار، يقول العلامة السيد عبد الحي الحسني في كتابه «نزهة الخواطر»: (جمع فيه المؤلف كل غريب الحديث وما ألف فيه، فجاء كشرح للصحاح الستة، وهو كتاب متفق على قبوله بين أهل العلم منذ ظهر في الوجود، وله منة عظيمة بذلك العمل على أهل العلم). ومؤلفات علماء الإسلام كثيرة في موضوع غريب الحديث، كما يعرف أهل هذه الصناعة، ولكن الذي مارس تدريس الحديث الشريف، وكان من المتبصرين الحاذقين لهذا العلم، والذين يواجهون المشكلات في تدريس هذا الفن، وشرح الحديث عملياً، يعرفون ميزة هذا الكتاب، وعلو كعب المؤلف ورسوخ قدمه في فهم الحديث وسعة نظره فيه.

ويعرف أهل البصر، والمشتغلون بالتدريس والتأليف أن موضوع المصطلحات العلمية، وشرحها وتحديد معانيها، والوصول فيها إلى اللباب وفصل الخطاب من أدق العلوم، والمؤلف في هذا الموضوع من أعظم المؤلفين مسؤولية

وتحرجاً، فإن المصطلحات كالخارطة للسفن والمراكب والطائرات، فأدق خطأ في خطوطها التي تضبط المراكب والطائرات، وتحدد الجهات والغايات، قد يكون سبباً لضياع هذه البواخر والطائرات، أو انحرافها عن الغاية المقصودة، وقد كان من شجاعة علماء الهند ومغامرتهم، وثقتهم بالنفس، ومكانتهم في الثقافة الإسلامية العربية، أن تناولوا هذا الموضوع الدقيق للتأليف، ومؤلفات أهل الهند في هذا الموضوع هي الفريدة في هذا الباب والخطيب في المحراب، وعليها الاعتماد فيما أُلِّف في فهم المصطلحات العلمية واستخدامها، إذ ألف الشيخ عبد النبي الأحمد نكري كتابه «كشاف اصطلاحات الفنون». وهو كتاب عظيم النفع تلقاه المشتغلون بالعلم في البلاد بالقبول، وأثنوا عليه لأنه يغني عن مراجعة آلاف الصفحات، ومئات الكتب، وقد جاءت في عصارة دراسات المؤلف الواسعة العميقة، ورحيق معلوماته العذب الصافي، وهو في ذلك كنحلة تمتص من الأزهار والأوراد، وتصبُّ العسل المصفى.

وتُوِّج هذا المجهود العلمي، والعناية الدقيقة المخلصة بعلم اللغة، بمأثرة العلامة السيد مرتضى بن محمد البلكرامي المشهور بالزبيدي، التي تجلت في كتابه العظيم

«تاج العروس في شرح القاموس» في عشرة مجلدات كبار، ولا أعرف -في حدود علمي- أن معجماً في أي لغة من لغات العالم الحية، عُنِيَ به هذه العناية الفائقة، وفكر في شرحه وتنقيحه والزيادة فيه، فأصبح موسوعة لغوية. وقد وُلد السيد مرتضى في الهند في قرية لا تبعد عن هذا البلد الذي نلتقي فيه بعداً كبيراً وقد كانت من توابع هذه المدينة، وهي مدينة كبار العلماء والأدباء، والشعراء والمؤرخين، كان في مقدمتهم مولانا السيد غلام علي البلكرامي صاحب «السبع السيارة»، وهي سبعة دواوين له بالعربية، وصاحب ابتكارات وزيادات في الشعر والعروض، وتوليد المعاني، والتفنن في الخيال، وقد شغل كتاب «تاج العروس» سمع الزمان وبصره، فتنافس في انتساخه، والحصول على نسخة منه كبار سلاطين العصر وملوك العالم.

ومما يجب أن يسجل في تاريخ الأدب العربي، وينتبه له المتتبعون لمسيرة الأدب العربي، وتطوراته، أن الهند الخاضعة لنفوذ الفرس الأدبي والثقافي، والتي كانت تعيش على فتات مائدة العرب في اللغة والأدب، أنجبت في مختلف عصورها من استطاع أن يسمو على الأسلوب الأدبي التقليدي الذي كان يسيطر على العالم العربي من

أقصاه إلى أقصاه، بعد أن ظهر كتاب «المقامات» للحريري، على المسرح الأدبي –ولا مؤاخذة فإن أبا زيد السروجي كان ممثلاً في مسرحيات مختلفة –فكان المثال الوحيد الذي يحتذى في الإنشاء والكتابة العربية، وقد كان ذلك كتغير الفصول، وحلول الربيع والخريف، أو كالأوبئة التي تؤثر في المزاج تأثيراً عاماً، لا يخلو منها قوي وضعيف، وسليم وسقيم، وقد غشيت العالم العربي، بل العالم الإسلامي، سحابة من تقليد أسلوب الحريري، ولكن ظهر من أفق الهند –البعيدة عن مهد اللغة العربية وأساليبها الأصيلة– رجال كانوا يبدون كيراعات وحباحب، في ليلة مطيرة مظلمة، كتبوا بقلم عربي أصيل، وفي أسلوب يجري مع الطبع، وهذه الظاهرة الأدبية أو البدعة في شريعة الأدب العربي المتبعة شرقاً وغرباً، تحتاج إلى دراسة عميقة.

وكان من هؤلاء الأفذاذ العلامة محمود الجونفوري – وهو من مدينة مجاوة في هذه الولاية الشمالية– (م١٠٦٢هـ)، فالذي يقرأ كتابه «الفرائد في شرح الفوائد» يتعجب لإنشائه المترسل، وأسلوبه العلمي التحليلي، وبعده عن السجع والتنميق الذي كان له سحر على أصحاب الصناعة الأدبية، والشادين باللغة العربية.

وإذا لم تكن الهند المجلّية في مضمار التحرر من قيود السجع والقوافي، والبديع والصنائع اللفظية، وإيثار جانب المعاني على جانب زخرفة الألفاظ، وإرسال النفس على سجيتها، وإطلاق عنان القلم، فقد كان السبق في ذلك، والزعامة العلمية لنابغة العرب، وإمام فلسفة التاريخ، العلامة عبد الرحمن بن خلدون التونسي ولمقدمته العظيمة الفريدة التي هزت العقول والأذواق، وشقت طريقاً جديداً للإنشاء والبحوث العلمية، أقول: إذا لم يقدر للهند أن تكون هي المجلّية في هذا المضمار، وقد كان طبيعياً، لأنها كانت في آخر حدود العالم الإسلامي وتحت نير الحكم العجمي السياسي والثقافي، فقد كانت المصلّية في هذا المضمار، إذ نبغ فيها الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي (م١١٧٦هـ)، فألف كتابه «حجة الله البالغة»، والكتاب -علاوة على مكانته في موضوع أسرار أحكام الشريعة وفلسفة التشريع الإسلامي- مثال فريد لسلامة الذوق الأدبي، ونصاعة اللغة، وقوة العبارة وانسجامها، وبعدها عن السجع البارد، وتقليد أسلوب الحريري، وهو يعد بحق النموذج الثاني للنثر الطبعي السلسال، والتعبير العلمي العامر، بعد مقدمة ابن خلدون، والذي يقرأ فصل (المدنية العجمية عن بعثة

الرسـول ﷺ) في كـتـاب «حـجـة الله الـبـالـغـة» يحـار لرشـاقـة العبارة والتدفق البياني، وسهولة اللغة وعذوبتها.

وقد نبغ بعده علماء كتاب في الهند، كانت كتاباتهم في السير والتراجم، والبحوث العلمية والتاريخية تختلف عن كتابات معاصريهم في البلاد العربية الصميمة ومراكز الثقافة العربية، في عذوبة العبارة، وخفة الروح، وتنوع المادة، والترسل، ونخص بالذكر منهم العلامة محسن بن يحيى الترهتي صاحب «اليانع الجني في أسانيد الشيخ عبد الغني» وهو كتاب مشرق الديباجة، عليه رواء العربية الفصحى، ورشاقة الأدب القدير، وعلامة الهند الأمير السيد صديق حسن القنوجي البهوبالي (م١٣٠٧هـ)، والمؤرخ الكبير العلامة السيد عبد الحي الحسني (م١٣٤١هـ) صاحب «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» في ثمانية مجلدات، والعلامة المحقق الكبير عبد العزيز الميمني صاحب كتاب «أبو العلاء وما إليه» وغيره.

وهنا اسمحوا لي أن ألفت نظركم إلى حقيقة تاريخية أدبية، وأنقل سطوراً من كلمتي التي ألقيتها في مهرجان ندوة العلماء الكبير المنعقد في ٢٥-٢٨ شهر شوال عام ١٣٩٥هـ. قلت:

(من سمات علماء الهند البارزة أنهم قادوا الحركة

الأدبية الإنشائية في شبه القارة الهندية، وكانوا من الدعائم القوية السامقة التي قام عليها قصر الأدب الرفيع، والنثر الفني بعد ثورة ١٨٥٧م، وكان كل واحد منهم مؤسس مدرسة أدبية خاصة لا يزال لها أنصار وأبتاع ومقلدون، وكان كثير منهم رائد نشاط جديد في الإنشاء والتحرير والنقد وتاريخ الأدب والشعر، ولا تزال مؤلفاتهم هي المرجع الأصيل والعمدة في هذا الموضوع، ولم يكن في الهند ذلك الفصام النكد بين علوم الدين والأدب العصري ولغة البلاد، ولم تكن تلك الفجوة التي وقعت في بعض البلاد بين علماء الدين والشادين بالأدب والشعر، والهائمين بهما، الفجوة التي جنت على الدين والأدب في وقت واحد).

وكانت مؤسسة ندوة العلماء التي تلتقون في رحابها، في مقدمة من أنكرت هذا الفصام النكد بين الدين والأدب، وتكوين معسكرين متنافسين، معسكر العلماء والدعاة ومعسكر الأدباء والكُتّاب، في لغة البلاد، والمؤلفين في آدابها، وأنكرت احتكار الأدباء المتزعمين للأدب واللغة والإنشاء، والنقد والتاريخ. وقد تجلت هذه الحقيقة وهذه الاستنكار في عبارة أحد المنتسبين إلى ندوة العلماء؛ اسمحوا لي أن أنقلها منقولة من الأردية إلى العربية والكاتب يتحدث عن رجعية التقدميين من الأدباء، يقول:

(إن الأدب الذي كان أجدر بأن يرفض السير على خط واحد رسمه القدماء، وكان أحق بأن يتعير من الجمود والتقليد من أية مؤسسة علمية ومدرسة فكرية، إن الأدب الذي رضع بلبان الجدة والجراءة والذكاء والتذوق بالجمال، وارتفع أساسه -بالتعبير الأدبي- على حب الجمال في كل شيء، وعلى الشغف بالأزهار والأوراد، في كل حديقة وروضة، وفي كل غابة وواحة، هذا الأدب قد وقع -مع الأسف- فريسة العصبية التقليدية، وأصبح أسيراً للعادات والرسوم، وقلما نجد الأدباء والنقاد في هذا العصر يتجاوزون حدود تعريف الأدب والإنشاء الذي وضعه المؤلف الأول أو مؤرخ الأدب القديم، أو يتخطون رسومه التي قررها هو، الأمر الذي جعل كل أديب يترسم خطى الأديب الذي سبقه في رحلته الأدبية، دون أن يطمح إلى زيادة أو ابتكار، أو تطوير في ذخائر النماذج الأدبية، إنما يتم اختيار عدة أشخاص مثاليين للأدب والكتابة فيقلدهم كل أديب ومؤرخ تقليداً أعمى، ويجترُّ آثارهم وأسلوبهم).

وما أصدق قول شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال تعبيراً عن هذه المدرسة الأدبية التقليدية تقليد الببغاء، حيث قال: (إن هذه المدرسة تدور كثور الطاحون حول محور واحد قديم).

ولقد كانت ندوة العلماء أيضاً أول من نادى بضرورة استعراض المكتبة العربية من جديد، وغربلتها ونخلها وإثارة دفائنها وكنوزها، وإبراز محاسنها وبدائعها، ولو كانت في غير مظانها، وعند من يعتبر من أغنى الناس عن الهيام بالأدب والقدرة على التعبير وأبعدهم عن دست الأدباء والكتاب. كما نادت بوضع مناهج جديدة لتعليم اللغة العربية وآدابها، تعلم الدين والأدب في وقت واحد، وتطبع على السليقة العربية، وتثير المواهب الفطرية، وتعيد الثقة بصلاحية هذه اللغة ومسايرتها لكل عصر وموضوع.

لكل هذه الأسباب، ولهذا الركيزة الأدبية التاريخية، لم يكن من المستغرب أن تنظم ندوة العلماء هذه الندوة العالمية للأدب الإسلامي، وتدعو إليها كبار الأساتذة والمعنيّين باللغة العربية وآدابها، والتربية الإسلامية ومناهجها، وقد كانت الاستجابة الكريمة التي لقيها منظمو هذه الندوة، دليلاً على إخلاص الداعين، وذوق المدعوّين الذي قطعوا مسافات بعيدة، وتحملوا صعوبات السفر لتلبية هذه الدعوة، وتداول الآراء والفكر في هذا الموضوع الكبير الخطير.

ومرحباً بالقادمين الكرام، وشكراً للأساتذة العظام –
والحمد لله أولاً وآخراً.